المحاضرة الثالثة: رواد التّأليف في أصول النحو

يُعدّ ابن جنّي أوّل من وضع حجر الأساس لهذا العلم من خلال كتابه الخصائص وهذا بعد قرنين من ظهور ونضج علم النحو فإذا كان النحويين قد فتشوا عن قواعد النحو وأحكامه من خلال النصوص العربية الفصيحة فإن المشتغل بأصول النحو لم يكن له بد من التفتيش عن تلك الأدلة- التي اعتمدوها في استخراج أحكام النحو- إلا من خلال كتب النحو وأخصها كتاب سيبويه، ولقد ظن بعض اللغويين أن كتاب الأصول في النحو لابن السراج كتاب في أصول النحو، وقد ضللهم عنوانه، فنسبوا إليه السبق في التأسيس والحق إنه كتاب في علم النحو إذ كثيرا ما كان النحويين في ذلك العهد يطلقون لفظ الأصول على قواعد النحو.

ولم يستقر علم أصول النحو على هذه التسمية إلا ابتداء من ظهور كتاب ابن الأنباري: لمع الأدلة في أصول النحو ثم بعد ذلك كتاب السيوطي : الاقتراح في أصول النحو وقد ألفا كتابيهما على غرار أصول الفقه تأثرا به وقد ادعى كل منهما السبق في تأسيس هذا العلم وضبط موضوعاته غير أن كتاب الخصائص يثبت أن ابن جني كان أول من عبد الطريق لهذا العلم فكتابه وإن طغت عليه مباحث تتعلق بفقه اللغة والنحو والصرف فقد تضمن كثيرا من مسائل أصول النحو وقد استند ابن الأنباري إليها ولم يخفيا ذلك.

والذي يظهر جليا أن رواد هذا العلم قد اختلفوا في تحديد أدلته عددا ونوعا – وإن أجمعوا على السماع والقياس - فرأى ابن جني أنها السماع والقياس والإجماع ، ورأى ابن الأنباري أنها السماع والقياس واستصحاب حال الأصل وجعلها السيوطي أربعة: السماع والقياس والإجماع واستصحاب حال الأصل.

وجاء المحدثين واختلفوا هم أيضا في تحديدها فقال الدكتور حلمي خليل بثلاثة أصول وهي السماع والقياس ونظرية العامل، وقال الدكتو محمد عيد في كتابه أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث بخمسة فصول وهي السماع والقياس ونظرية العامل والتقدير والتعليل. ولعل

أن يكون الخليل أكبر من أصل هذا النهج القائم على التسليم بحكمة واضع العربية ثم سار على نهجه تبعه تلاميذه، إذيقول ردا على من سأله عن العلل الذي أتى بها ان كانت من عنده أم سمعها عن العرب " إن الغرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها،وقام قي عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما اعتللته منه فمثلي مثل رجل حكيم دخل دار محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا ولسبب كذا وكذا...